

قراءة في كتاب: "أمة لا اسم لها"

لنادر كاظم

Reading in the book «A Nation Without a Name»

By Nader Kazem

د. سفيان حامدي

جامعة بقفصة

تونس

Soufien.hamdi11@gmail.com



قراءة في كتاب: "أمة لا اسم لها"

لنادر كاظم

د. سفيان حامدي

ملخص:

بسط أستاذ الدراسات الثقافية بجامعة البحرين الأستاذ الدكتور نادر كاظم في كتابه "أمة لا اسم لها" البحث في مسألة جدّ مهمة، كانت وما تزال من شواغل الفكر العربيّ، وهي مسألة «الأمة» وما يتعلّق بها من مفاهيم ومدلولات. وقد حاول تقصّيها معنى ومعانيها، وما شدّنا في هذه المحاولة هو عمقها التحليليّ، لذلك رغبتنا في تقديمها إلى القارئ العربيّ علّنا نساهم في زيادة وعيه واستفادته منها لما في هذا الجهد التحليليّ من إجابات على كثير ممّا قد يجول بذهنه من إشكاليات موصولة بهذه المسألة.

الكلمات المفتاحية: الأمة، الوطن، القومية، الشعب، الهوية.

Abstract:

Professor of Cultural Studies at the University of Bahrain, Prof. Dr. Nader Kazim, wanted in his book «A Nation Without a Name» to discuss a very important issue, which was and still is one of the concerns of national thought, which is the issue of «the nation» and its related concepts and connotations. He tried to investigate the meaning and preview, and what attracted us in this attempt is its analytical depth, so we wanted to present it to the Arab reader publicly to contribute to increasing his awareness and benefit from it because of the answers in this analytical effort to everything that may wander in his mind about the merits of this issue.

Keywords: nation, homeland, nationalism, people, identity.

1- مقدمة:

تزايد الاهتمام بدلالة «الأمة» في القرن التاسع عشر نتيجة اليقظة الفكرية التي أثمرها عصر النهضة العربية، والذي تزامن مع بزوغ الفكر القومي العربي وبداية ضعف الدولة العثمانية، فاتجهت همم المنظرين منذ ذلك العصر نحو تأصيل المفهوم وتطويره والبحث في أسس بناء الأمة وفي علاقتها بالوطن والشعب والقومية، سواء أكان ذلك بتقديم رؤية قومية عربية لمدلول الأمة أم باستدعاء بعض النماذج القومية الغربية- التي كانت بشكل أو بآخر المحفز الرئيس لأبرز القوميين العرب- ومحاولة إسقاطها على التجربة العربية. ويعتبر الكتاب الذي ألفه الأكاديمي البحريني الأستاذ الدكتور نادر كاظم والموسوم بـ "أمة لا اسم لها" من المؤلفات الرائدة التي اهتمت بهذه المسألة دراسة وتحليلاً.

فما هي أهم الإشكاليات التي تمت إثارتها في هذا الكتاب؟ وما حدود هذا الطرح؟

اخترنا الاشتغال على هذا الأثر الفكري نظراً لأهميته ما احتواه من طرح؛ في محاولة من الكاتب للإجابة على مجموعة مهمة من الأسئلة التي تساور العقل العربي حول هذه المسألة المركبة وما شاب تشكيلها وبناءها من غموض والتباس.

2- التقديم المادي للكتاب:

أصدرت دار "سؤال" للنشر ببلبنان كتاب: "أمة لا اسم لها" للباحث البحريني نادر كاظم¹، وقد حوى الكتاب 367 صفحة. وينقسم إلى مدخل وأربعة فصول.

يتضمن كل فصل مجموعة من القضايا الجوهرية المهمة.

الفصل الأول: المنظورات العربية الأساسية: من تأليه الأمة إلى اختراعها وتخيّلها.

الفصل الثاني: المنظورات العربية الأساسية: من الأمة الخالدة إلى الجماعات المتخيّلة

الفصل الثالث: الدولة والأمة في العراق من البناء إلى التفكك.

الفصل الرابع: بناء الأمة في البحرين: من التجزؤ إلى الوحدة إلى «الطوائف المتخيّلة»

3- قراءة في المحتوى:**3-1- مدخل: أمة لا اسم لها:**

يفتح الكاتب نادر كاظم كتابه بمدخل وسمه بـ «أمة لا اسم لها»، قصّ خلالها واقعة دارت أحداثها في أغسطس 1950 في البحرين، جاء فيها أنّ رئيس تحرير مجلة «صوت البحرين» نشر في افتتاحية العدد الأوّل ما أثار حفيظة علي محمد فخرو والذي كان آنذاك في مقتبل حياته الجامعية، وقد استاء فخرو من مقولة

1- كاتب وناقد ثقافي بحريني وأستاذ الدراسات الثقافية بجامعة البحرين. صدرت له عدّة كتب في التقد الثقافي والفكر الحديث وقراءة التاريخ. آخرها "لماذا نكره؟" و"المقامات والتلقّي"، و"تمثيلات الآخر"، "الهوية والسرد"، "طبائع الاستهلاك"، و"استعمالات الذاكرة"، و"إنقاذ الأمل"، و"كراهيات منفلة" و"خارج الجماعة". وصدر له مؤخراً كتاب "تاريخ الأشياء".

الافتتاحية « الصحافة هي لسان الأمة»، وكتب ردًا شديد اللهجة ضدّ رئيس المجلة مستنكرًا استعمال عبارة أمة إشارةً إلى شعب البحرين. مؤكداً أنّ البحرين لا يعدو أن يكون جزءاً من أمة، لا أمة قائمة بذاتها. وما يثير استغراب الكاتب البحريني نادر كاظم في هذه الواقعة أنّ هيئة تحرير المجلة شعرت بالخجل من نفسها، وردّت تعتذر عن هذا الاستخدام لكلمة «أمة» بدل كلمة «شعب»، وضمت صوتها إلى صوت علي فخرو.

ومن ثمّة يطرح الكاتب مجموعة من التساؤلات حول ما يمكن أن نطلقه على تلك الجماعات، وما يمكن أن تعنيه عبارات الطوائف والشعب والأمة.

3-2- الفصل الأول: المنظورات الغربية الأساسية: من تأليه الأمة إلى اختراعها وتخيّلها:

إنّ إبانة المفاهيم الرئيسية لأيّ قسم أو فرع إبستيمي يعدّ اللحظة الأولى لتشخيص ذلك القسم أو الفرع على نحو منتظم. ولما كانت المفاهيم سابقة لبناء كلّ نتاج فكريّ، إذ هي اللبّات الأولى التي يُبنى منها، فإنّ همّة الكاتب قد اتّجهت في الفصل الأوّل الذي وسمه بـ: المنظورات الغربية الأساسية: من تأليه الأمة إلى اختراعها وتخيّلها، نحو طرح تساؤلات وإشكالات عديدة، متجدّدة تزوج ما بين مفاهيم «الشعب» و«الوطن» و«الأمة».

ويصبّ هذا الفصل في السعي إلى بلورة محصّلة مفهوميّة معرفية قد تتحقّق بمحاولة كشف الغموض وإزالة اللبس الذي يكتنف تلك الأسماء الفخمة – على حدّ عبارة الكاتب- عبر الاستناد على فلسفات مختلفة. وذلك من خلال إعادة قراءة بعض التجارب التاريخيّة والتّنظيرات الغربيّة التي تناولت مصطلحات الأمة والشعب والوطن في ألمانيا وفرنسا على وجه الخصوص.

عمد المفكّر البحريني في لحظة أولى إلى استدعاء النّمودج الألماني كما لدى يوهان فيخته Johann Fichte (1762–1814) فيلسوف القوميّة الألمانيّة في القرن التاسع عشر، وقد تشكّلت فكرة القوميّة عند فيخته بناء على مسار ملتبس، تداخلت فيه عناصر مختلفة، منها ما هو تاريخيّ، إذ إنّ الفلسفات القوميّة الألمانيّة على وجه العموم كانت إلى حدّ بعيد نتاجات لتواريخ سياسيّة مليئة بالأسى والحسرة والاستعمار الفرنسيّ الذي حرّمها من كلّ أنواع الاستقرار والوحدة والتّماسك.

واستفاد فيخته كذلك في مجال دراساته القوميّة من الفلاسفة والمفكّرين الذين سبقوه، وقد أشار الدكتور كاظم إلى كون أنّ فيخته قد ذهب مذهب الفيلسوف يوهان هيردر Johann von Herder (1744–1803) في تأليه الأمة وتقديسها واضعاً إيّاها على القمّة التي يرتفع فيها هذا المفهوم فوق كلّ شيء؛ فوق السائس والرعية والأفراد والجماعات وفوق الدّولة ذاتها.

ويتّفق فيخته مع رائد القوميّة الألمانيّة هيردر في كون الأمة ليست مجرد مجموعة بشريّة، ولا هي مجرد طائفة دينية، أو فصيلة عرقية، بل تتجاوز كلّ ذلك؛ فهي امتداد تاريخيّ للقديم البعيد والحاضر والمستقبل، وهي عضويّة حيّة، ذاتيّة النموّ والتّطوّر، لها وجودها الفريد والبدائيّ، وهبتها الطبيعة غريزة حياتيّة وألمعيّة. وهذه الأمة تتجلّى تلقائيّاً في اللسان المشترك والمبادئ العامّة والسلوكات الأخلاقيّة.

ويعتبر يوهان فيخته أبرز مفكر قديم صياغة مكتملة لهذا التصور الألماني عن الأمة بوصفها ظاهرة أو حقيقة طبيعية، وذلك في خطابه الشهيرة إلى الأمة الألمانية التي انطلق إلقائها في 13 كانون الأول 1807م أمام حشد لم تشهد مثله قاعة أكاديمية العلوم ببرلين تحت وقع الهزيمة الألمانية المرة، وإبان خضوع العديد من الولايات الألمانية للاحتلال الفرنسي المباشر وغير المباشر.

وأيا ما كان الأمر، فإن فيخته لا يميّز بين الأمة والشعب، فهو يستخدمهما مترادفين، لكنه يميّز بين الأمة والدولة. إذ الدولة، عنده، مجرد تنظيم سياسي اجتماعي لتسيير شؤون البشر، في حين أنّ الأمة هي التجسيد الفعلي للخلود الإلهي¹.

وفي لحظة ثانية، ينتقل المفكر البحري إلى تشخيص النموذج الفرنسي للقومية مسلطاً الضوء على رؤى أرنست رينان Ernest Renan (1823-1892) حول الأمة وبنائها، ونظرية العيش المشترك مفككا نصّ محاضراته الشهيرة: ما الأمة؟

ولئن كانت الأمة عند فيخته عضوية حيّة، فإن أرنست رينان ينظر إليها بوصفها مشاعر مشتركة، تصدر عن ذاكرة جماعية واحدة، وتحمل الآمال والتطلّعات نفسها.

وعلى الضدّ من مفهوم فيخته عن الأمة كجوهر بوصفها جوهرًا ضاربا في عمق التاريخ، فإنّ الأمة في الفكر الريناني ليست مفهوما حديثا وحسب، بل أكثر من ذلك، إنّها لا تتأسّس على التاريخ بالضرورة، بل هي تتأسّس، على العكس من ذلك، على النسيان والخطأ التاريخي².

وفي ثانيا تحليله لخطابات رينان يؤكد الدكتور كاظم أنّ الأمة أضحت مع الفكر القومي الفرنسي تكاتفا واسع المدى، تتشكّل لبناتها إبان الإدراك الجماعي للتضحيات التي بذلها الأفراد في الماضي، وتلك التي يستعدّون للقيام ببذلها في المستقبل.

ويرتكز هذا التشكّل على أساسين: أساس في الماضي، وأساس في الحاضر، "الأول هو امتلاك قواسم مشتركة لإرث ثري من الذكريات؛ فيما الآخر هو القبول الزاهن، والرغبة في العيش معاً، والرغبة في مواصلة الاستثمار في التّراث الذي تلقيناه معاً". إنّ موافقة الناس والتزامهم بالعيش معاً في دولة واحدة هو الذي يكون هذه الأمة، وهو "الاستفتاء اليومي" على ديمومة هذه الأمة³.

من ثمة لا تعدّ اللّغة والدّين والمصلحة العامّة والعرق والجغرافيا من بين المكوّنات التي تشكّل الأمة؛ بل هي الماضي البطولي المشترك، وإرادة البشر وقرارهم بصرف النّظر عن تجسّد ذلك في قواسم مشتركة.

وفي ما تبقى من هذا الفصل، ينتهي المفكر البحري إلى الحديث عن مآلات الرؤى الفيختية والرّينانية حول مسألة الأمة، مشيراً إلى أنّ العالم الغربيّ قد تجاوز النموذج الألماني منذ النّصف الثاني من القرن العشرين، مقابل انتشار النموذج الفرنسي بتنوّيعات عديدة.

1- كاظم، نادر: أمة لا اسم لها، ط1، دار سؤال للنشر والتوزيع، لبنان، 2022، ص36.

2- المصدر نفسه، ص58.

3- المصدر نفسه ص63.

3-3- الفصل الثاني: المنظورات العربية الأساسية: من الأمة الخالدة إلى الجماعات المتخيلة:

لقارئ هذا الفصل يتمعن أن يلاحظ معالجة المفكر البحريني المعمقة لمؤدى مفهوم «الأمة» عند العرب بدءا باثنين من أبرز رواد النهضة واليقظة العربية في القرن التاسع عشر: المصري رفاعة رافع الطهطاوي والتونسي خير الدين باشا، مروراً بتفاسير ثلاثة أجيال من القومييين العرب بدءاً بنجيب عازوري وساطع الحصري وميشيل عفلق مروراً بقسطنطين زريق ونديم بيطار وصولاً لمحمد جابر الأنصاري وصولاً إلى وعزمي بشارة ونظرية فصل القومية عن الدولة.

ويُعلن الكاتب في بداية هذا الفصل، أن القومية العربية في عصر رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي لم تكن أمراً ذا أهمية، مصرّحاً بأنّ روحاً من الإعجاب بالعالم الغربي قد أخذت تسري بين الرؤى الإصلاحية للرجلين، وهو ما يتجلى بوضوح في مخرجات «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي و«أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» لخير الدين باشا.

يشير المفكر البحريني أيضاً، إلى أنّ القومية عند رفاعة الطهطاوي، كما كانت عند خير الدين التونسي، تقع في خانة اللامفكر فيه، فلم يكن أيّ منهما يفكر في وطن للعرب بما هم قومية متميزة، بل لم يكن أيّ منهما يساند تلك الحركات الانفصالية والاستقلالية عن السُّلط القائمة¹.

إنّ عدم التفكير في مسألة القومية في تلك الفترة والاقتران بالأفكار الغربية يعدّ أمراً طبيعياً، إذ إنّ الطهطاوي والتونسي لم يعيشا ليريا الفرنسيين والانجليز يتقاسمون الأقطار العربية في ما بينهم. ولم يكونا شاهدين على العصر الذي أخذت فيه أوروبا تجتاح الشّرق بحملاتها، فلم يمض غير يسير من الوقت، حتى كانت القوى الاستعمارية قد مدّت شراكها إلى أقطار العالم الإسلامي، واكتوى العالم العربي بجحيم الحروب احتلالاً لأرضه واستغلالاً لخيراتهِ وثوراته.

وقد وقف الكاتب، خلال تحليله، على مرحلة التحوّل التي عرفها مفهوم الأمة في عصر القوميات، التحوّل الذي يتجلى بوضوح عند استقرار مزيج القومية الغريب عند نجيب عازوري.

كان عازوري يعي جيداً أنّ القومية العربية هي نتاج وعي العرب «بتجانسيتهم التاريخية والعنصرية، وهم يريدون الانفصال عن الشجرة العثمانية ليكونوا دولة مستقلة بذاتهم»².

ويضع المفكر اللبناني حدوداً لوطن عربي تمتدّ من الفرات ودجلة إلى خليج السويس، ومن المتوسط حتّى بحر عمان ويستثنى جزءاً مهمّاً من البلاد العربية التي صرنا نعرفها في العصر الراهن.

ويكشف الكاتب أيضاً مدى التباين بين تصوّرات رواد النهضة العربية وبين تصوّرات القومييين العرب في ما يتعلّق بمحدّدات الأمة عند التّطرّق إلى معانيها عند كلّ من ساطع الحصري وميشيل عفلق.

1- المصدر نفسه، ص 108.

2- المصدر نفسه، ص 116.

وقد بدأ تأثر الرّجلين بالتجربة الفيختية الألمانية واضحاً، وبدت لهما خطابات فيخته إلى الأمة الألمانية، خطابات "عميقة" و "وحماسية"¹.

ويبدو أنّ اقتداء الحصري وعفلق بالنموذج الألماني - كما يرى الكاتب- في تحديد مكونات الأمة يعود إلى التشابه الكبير بين الحالة العربية والحالة الألمانية من حيث الروابط التاريخية والاتصال الجغرافي.

وليس ببعيد عن هؤلاء يتصدّر نديم البيطار قائمة المنظرين للعلاقة البنائية بين الدولة والأمة، فهي عنده شعور مشترك وتقاسم عناصر مميزة تكون محصورة في دوائر اجتماعية صغيرة، وبنشأة الدولة لا قبلها، يتمّ تكوين هذه المشاعر والقواسم القومية المشتركة عبر توسيعها لتغطّي نطاقاً أكبر من القبيلة والطائفة والمحلّة والقرية لتكون على مقاس «الأمة»².

الأمة إذن ليست كيانا قائماً وموجوداً سلفاً حسب الفهم القومي عند البيطار، بل هي محصلة لاحقة، وهي كيان يُصنع صنعا نتيجةً لعمليات دمج وصهر تقوم بها الدولة.

أما عزمي بشارة فقد بنى أفكاره القومية- كما يرى الكاتب- على فكرة مؤداها أنّ القومية العربية «جماعة عضوية متخيّلة»، بحيث يمكن للفرد العربي أن يتخيّل نفسه عربياً بأدوات تخيّل الأمة الحديثة مثل اللغة والثقافة وعناصر التاريخ المشترك³.

عموماً، تقوم الرؤية القومية لعزمي بشارة على تصوّر حديث قاده إلى واحدة من أبرز إضافاته النظرية الفكرية للقومية العربية، وهي التّفريق والفصل الملحّ بين القومية والدولة.

3-4- الفصل الثالث: الدولة والأمة في العراق من البناء إلى التفكك:

سلّط الأستاذ الدكتور نادر كاظم في هذا الفصل الضّوء على مسألة ذات طابع خاصّ وحساس تتعلّق بقراءة تجربة العراق، دولة وأمة. ففصّل القول تفصيلاً لا مزيد عليه في تبيان العجز الدّريع لدولة العراق أمام الأزمات والمنعطفات التاريخية الحاسمة، إذ بيّنت التّجارب المرّة التي شهدتها البلد، أن كثيراً من العراقيين انحدروا إلى الدّرك الأسفل من السّلوك الطائفيّ والمذهبيّ الأرعن، وانضمّوا إلى القطيع الذي ينوء تحت أثقال الكراهية والانغلاق معلنين عن فشل هياكل السياسة العراقية في عهدها الملكي والجمهوري في تحقيق الأمن الاجتماعي والوحدة الوطنية.

وفي هذا الفصل يقدّم الكاتب العراق مثالا نموذجياً لدى كلّ من عزمي بشارة ومحمد جابر الأنصاري، أمّا بشارة فينظر إلى العراق بوصفه نموذجاً راهنا لظاهرة «الطوائف المتخيّلة»، لأنّ صعود الطائفيين الشيعة والسنية دليل على فشل الدولة الوطنية العراقية - وخاصة في العراق الجمهوري- في تكوين هوية وطنية عراقية جامعة لكل طوائفه⁴.

1- المصدر نفسه، ص 123.

2- المصدر نفسه، ص 137.

3- المصدر نفسه، ص 143.

4- المصدر نفسه، ص 174.

لا مرأ أن فشل التجربة العراقية في بناء الأمة يرتبط بانعدام التعدد في أحيان كثيرة. فهذا البناء يقتضي انفتاح النظام السياسي والمالي والثقافي وحتى المجتمعي على مشاركة كل الأطراف الشيعية والسنية وحتى الكردية، تلك الأطراف التي تغرق في عنف، وتعجز حين يختل بناء الأمة. وهو ما يقتضي تصويب العلاقة بين السبب والنتيجة.

أما محمد جابر الأنصاري فإنه يركز على تحليل حنا بطاطو لتجربة العراق الملكي؛ ليصل إلى أن العراق يمثل أبرز نموذج عربي حديث لقيام دولة وطنية وحكم مركزي جاء، في عام 1921، لدمج مكونات العراق الطائفية والعشائرية والمناطقية في هوية وطنية جامعة لكل العراقيين الذين لم تجمعهم وحدة سياسية مستقلة من قبل. وعلى هذا الأساس، انتهى الأنصاري إلى هذه الفكرة القائلة بأن قيام العراق الحديث يمثل «خطوة متقدمة هامة باتجاه «التوحيد الحقيقي»¹.

وبناء على ذلك لا ينبغي أن ننظر إلى هذه الخطوة على أنها تجزئة للأمة، بل هي خطوة توحيدية مهمة، ولا بدّ منها في سبيل الوحدة العربية.

عمومًا، يحدّثنا المفكر البحريني بكثير من الإطناب عمّا آل إليه العراق العريق في مسار انحداره من بناء الأمة إلى التفكك، فيقول: «يمثل تاريخ العراق الحديث حكاية فريدة من نوعها، وهي حكاية تتداخل فيها أنماط الحكى على نحو متعاقب، حيث بدأ التاريخ كحكاية بطولية مع دولة ملكية حديثة صاعدة وأخذة في استكمال توطيد أركانها، وشعب سائر نحو التوحد والاندماج الوطني على نحو متصاعد، ثم إذا بهذا التاريخ ينعطف ليتحوّل إلى حكاية درامية تعجّ بالأحداث وحوادث القتل والسحل في الشوارع، حتى انقلب، في نهاية المطاف إلى حكاية تراجيدية مؤلمة تحطّمت، معها، الدولة، وصرنا أمام حالة "اللدولة"².

3-5- الفصل الرابع: الأمة في البحرين: من التجزؤ إلى الوحدة إلى «الطوائف المتخيلة»:

يختص هذا الفصل بالحديث عن تجربة البحرين. ويقدم قراءة جديدة في بناء تاريخ الأمة في هذا البلد العربي الصغير في مساحته، الفريد في تكوينه.

ويحصر المفكر البحريني أدوات بناء الأمة في ثلاثة عناصر رئيسية: الدولة الحديثة وشركة نطف البحرين، والانتفاضات الوطنية.

أما الدولة، بما هي جهاز إداري مركزي بما فيه من مؤسسات وقوانين وتنظيمات للحكم أو الرقابة أو الإشراف أو التنظيم، فلا يمكن فصلها عن بناء الأمة والسبب أن أدوات التوحيد الأولى التي سمحت بتخيّل الأمة في البحرين كانت أدوات حكومية بالدرجة الأولى³.

1- المصدر نفسه، ص 174.

2- المصدر نفسه، ص 200.

3- المصدر نفسه، ص 238.

وفي الحقيقة، تكفي نظرة سريعة على تاريخ البحرين، لنقف على ما يؤيد رأي الكاتب، فالبلد كان مزيجاً من عناصر مختلفة عربية وبحارنة وسنية وشيعية، وكان الفارق في الرقي والعادات والسلوكيات بين أهل الحضر وأهل البدو شاسعاً، فكان المجتمع في بادئ أمره مجرداً من أيّ وشيجة توحدته، إلى اللحظة التي اضطلعت فيها أجهزة الدولة الإدارية، خلال عشرينات القرن الماضي، بمهمة تحويل تلك الفئات إلى جماعة متخيّلة واحدة.

أمّا شركة نفط البحرين، فيتجسّد دورها في بناء الأمة من خلال معاضدة جهود الحكومة في تهيئة المنشآت العامة وبناء المدارس والمستشفيات وغيرها من المؤسسات الجامعة لمختلف الفئات المجتمعية، علاوة على دور الشركة التشغيليّ الجامع لآلاف البحرينيين على اختلاف مذاهبهم وانتماءاتهم.

من جهة أخرى، يؤكّد الكاتب البحرينيّ دور الانتفاضات الوطنيّة الفعّال في الدّفع ببناء الأمة إلى الأمام من خلال رسم حدود الأمة بكثير من الآمال والتطلّعات والألام والتّضحيات والحسرات الجماعية. وقد صهرت تلك الانتفاضات الإثنيّات والطوائف والمناطق في بوتقة صهر عظيمة¹.

في ما تبقى من هذا الفصل يعدّد الكاتب الخطوات الإجرائية والتنفيذية التي خطتها دولة البحرين في مسارها نحو البناء الحديث للدولة وتوحيد المجتمع، على غرار إرساء التعليم الحديث وإنشاء شبكات المواصلات وسنّ قانون الجنسية.

4- حدود الطرح:

لئن بدا لنا هذا الجهد إبداعياً في بعض جوانبه، حيث تمكّن الدكتور نادر إلى حدّ بعيد من الإجابة على جملة من الأسئلة المتداولة حول مفهوم الأمة وتشكلها وامتداداتها في العالمين الغربيّ والعربيّ، وإمالة اللّثام عن عدد من الالتباسات الملازمة للفكر القوميّ العربيّ في مسائل الهوية والأمة ومحدّداتها، فإنّه لا يفوت الدّارس أن يسوق بعض الملاحظات على سبيل التفاعل المثمر، وطلباً لتخاصب الآراء والأفكار.

فيبدو لنا أنّ الكاتب قد أهمل مفكراً قومياً له أثره في الفكر القومي العربي وهو عصمت سيف الدولة (1923-1996) صاحب المشروع النظري المعروف بـ"نظرية الثورة العربية"، وقد حاول فيه أن يبيّن أنّ القومية العربية فكرة متجدّدة في التجربة الحضارية والتاريخية العربية الإسلامية، وأنّ العرب أمة قائمة الذات بالنظر إلى ما يميّزها عن غيرها من الأمم، ولها مقومات الأمة كما ظهرت عند الفلاسفة والمفكرين الغربيين إذ يقول بعد دراسة مفهوم الأمة في القرآن والوقوف على خلاصة عامّة فحواها أنّ الأمة هي الجماعة المتميّزة". وبهذه الدّلالة، دلالة كلمة الأمة في القرآن، يكون كلّ العرب منتمين إلى أمة عربية واحدة، حيث يكون مميّزهم عن شعوب وأمم أخرى ما يميّز الأمم عن الشعوب والقبائل، أو ما يميّز الأمم بعضها عن بعض من وحدة اللّغة كما قال فخته الألماني، أو وحدة الأرض والأصل والعادات واللّغة والاشتراك في الحياة والشّعور كما قال مانتشيني الإيطالي، أو وحدة الرّغبة في الحياة المشتركة كما قال رينان الفرنسي، أو وحدة

1-المصدر نفسه، ص240.

التاريخ واللغة والحياة الاقتصادية والثقافية المشتركة كما قال ستالين السوفياتي، أو وحدة اللغة والاشترك في التاريخ كما قال أستاذنا أبو خلدون ساطع الحصري، أو كان مميز الأمة أنها "مجتمع ذو حضارة متميزة، من شعب معين مستقر على أرض خاصة ومشاركة تكوّن نتيجة تطوّر تاريخي مشترك كما اجتمعتنا فقلنا..."¹.

وقد أراد سيف الدولة أن يثبت أن الأمة كأي ظاهرة اجتماعية يحكمها قانون "الجدل الاجتماعي". وهو عنده القانون الذي يفسر تطوّر المجتمعات، ويعني أن الأمم تتكوّن مروراً بأطوار من الأسرة إلى العشيرة إلى القبيلة إلى الأمة، يتمّ التطوّر من خلال التفاعل لمواجهة المشاكل التي تطرأ، والتي لا يمكن مواجهتها إلا بالتوحد وتجاوز طور إلى الذي يليه²، وأنّ العرب في ضوء هذا التمثّل يمثلون أمة بالقوة، وإن لم تكن كذلك بالفعل نظراً إلى عامل التجزئة الذي فرضه الاستعمار، والذي يتطلّب مواجهته ومجاوزته، وتحقيق أهمّ مطلب في الفكر القومي العربي وهو الوحدة العربية.

وقد ناقش محمّد عابد الجابري هذه المنطلقات المصادر عليها في الفكر القومي العربي بمختلف تياراته، والتي ترى أنّ العرب كانوا أمة واحدة، وتتجاهل تعدّد الدول العربية واستقلالها عن بعضها تاريخياً، فكان من رأيه أنه "منذ سقوط الدولة الأموية قبل ثلاثة عشر قرناً والدول المستقلة واقع معترف به في التاريخ العربي، بدءاً من الدولة الأموية في الأندلس والدولة الإدريسية في المغرب إلى الدول المستقلة في المغرب إلى الدول المستقلة الأخرى التي قامت بعد ذلك سواء في مصر أو الشام أو العراق وفارس..."³.

ويبدو لنا كذلك أنه كان بالإمكان الوقوف على عتبات بعض التجارب الوحدوية التاريخية على غرار ما يعرف بالجمهورية العربية المتحدة، والتي كان يرتجى منها تعضيد بناء الأمة في العالم العربي والعكوف على مساراتها ومآلاتها وأسباب فشلها في تحقيق تطلّعات الجماهير العربية.

وقد كان من الممكن أيضاً أن يطرح الكاتب بعض المشكلات المجتمعية والاقتصادية والأمنية والمناخية المهددة لكيان العالم العربي والبحث عن سبل تجاوزها في إطار حلول عربية مشتركة من شأنها أن تقوي أواصر الوحدة وتعزز الشعور بالانتماء إلى الأمة الواحدة.

1- عصمت سيف الدولة، "عن العروبة والإسلام" ط 3، دار البراق، تونس، 1988، ص 22.

2- "من المسلم أنّ التكوين البشري للمجتمعات في حركة تطوّر مستمرة من الأسرة إلى العشيرة، إلى القبيلة، إلى الأمة... إلى ما لا ندري الآن كيف يكون التكوين في المستقبل غير المنظور. ما ندره هو أنّ انتقال مجتمع من طور إلى طور لا يتمّ إلا بعد أن يستنفذ الطور الذي قبله كلّ إمكاناته المادية والبشرية لإشباع احتياجات البشر المادية والفكرية والروحية المتجددة أبداً." سيف الدولة، المرجع نفسه، ص 227.

3- محمّد عابد الجابري، "إشكاليات الفكر العربي المعاصر"، ط 4، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2000 ص 109.

5- خاتمة:

نخلص ممّا تقدّم إلى أنّ مقارنة المفكّر البحرينيّ نادر كاظم لمسألة «الأمة» مفهوماً وتحليلاً وتفكيكاً واستقصاءً... قد أفضت إلى أنّ مفهوم الأمة قد تشكّل حالةً فكريةً وقوميةً داخل العالمين الغربيّ والعربيّ وفق أنساق ومسارات مختلفة، تداخلت فيها عناصر متعدّدة. ومهما يكن من أمر، فإنّه لا يفوتنا، في خاتمة هذا التّقديم، أن نثمّن عالياً الجهود التي بذلت في هذا العمل الرائد، الذي سلّط الضوء على واحدة من أهمّ المسائل وأشدها حساسيّة في محاولة لبثّ الوعي بتاريخية تشكّل بعض المفاهيم القومية لدى الجيل الرّاهن.

